ما هي الطريقة ليصِلَ الإنسان للقداسة؟

بقلم المعلم الانطاكي الشماس

اسبيرو جبور

الربُّ يسوع المسيح لهُ المجد الإله المتجسِّد هو الّذي جعَلَ الله قريبًا من الإنسان، وما جعَلَهُ قريبًا فقط بَل ضمَّهُ اليهِ. في يسوعَ المسيح إتّحدَ الإله والإنسان. هكذا إتَّحَدَتْ السماءُ والأَرض للمرّةِ الأُولى منذُ إنشاءِ العالم، والى نهايةِ العالم.

الإلهُ صارَ قريبًا من الإنسان وموجوداً في الإنسان. في المسيحيّة يصيرُ الإنسان بالمعموديّة عُضوًا في جسدِ ربِّنا يسوعَ المسيح. يوحنا فم الذهب يقول: إنّ الروحَ القُدُس يسكنُ في يسوعَ المسيح، ويسوع المسيح هو ر أسُنا، ولذلك ينسابُ الرُّوحُ القُدُس من الرأسِ أي يسوعَ المسيح الى كلِّ أعضاءِ الجسد. فإذن، نحنُ أعضاءٌ في جسدِ يسوعَ المسيح ومَسكِنٌ وهَيكلٌ للرُّوحِ القُدُس. في رسالةِ بولس الى رومية الفصل5 الآية 5 : "والرجاءَ لا يُخَيِّب صاحِبَهُ لأَنّ محبة الله قد أُفيضَت في قلوبنا بالرُّوحِ القُدُس الّذي أُعطِيَ لنا".

ذَكرَ يوحنا الإنجيلي عن الرب يسوع قولَهُ: "من آمن بي كما قال الكتاب سَتَجري منهُ أَنهار ماءٍ حيٍّ "، قال هذا في الرُّوح القُدُس الّذي كان المؤمنون مزمِعين أَن ينالونَهُ بعدَ تمَجُّدِ الرب يسوع بالآلام والقيامة وأيضًا بالعنصرة. فإذن نحنُ هياكلٌ للرُّوحِ القدُسُ، نحنُ مساكنٌ لِلّه.

القداسةُ هي حالةٌ مستمرِّة لا حالةٌ ثابتة وهي حالةُ التوبةِ الدائمة . ليسَ من طهارةٍ على ا لأَرض. كلُّ الناس عبيدٌ لله ، كلُّ الناس خاطئون، وكلُّ الناس مَدعوُّونَ الى التوبةِ. ما الّذي يُميِّز الإنسان المسيحي؟ التوبة عن الأَعمال الشرّيرة. خَلْعِ الإنسان العتيق ولِبس الإنسان الجديد، والإنسانُ الجديد هو يسوعَ المسيح له المجد.

الإنسانُ المسيحي هو مصارعٌ . والآباء القدِّيسين يقولون إنّ الإنسان مصارعٌ ومحاربٌ. بولس الرسول إستعملَ عبارة الحلَبَة، حَلَبةُ الصراع والمصارعة. إستعمَلَ القاموسَ العسكري وبخاصةً في الفصل السادس من رسالتِهِ الى أَفسُس وفي رسالتِهِ ايضاً الى تيموثاوس. فإذن، المسيحي هو إنسانٌ مصارعٌ.

أخَذْنا يسوعَ المسيح في المعموديّة ولبِسْناه وتناولناه ، وأَخَذْنا الروحَ القُدُس بالميرون المقَدّس. الإنسانُ مولودٌ من آدم هو في الخطيئة، ومولودٌ في المسيح هو إنسانٌ جديدٌ في يسوعَ المسيح.

في الفصل 7 من الرسالة الى رومية و 5 من غلاطية: الصِراعُ قائمٌ بين ا لنفسِ والجسد. الروحُ تشتهي ضدّ الجسد، والجسد يشتهي ضدّ الرُّوح. ولَكِنّ الإنسانَ الّذي يُريدُ أَن يعيشَ بِحَسَبِ المسيح يَصمُدُ بالجسد وشهواتِه وأَهوائه.

ولذلك فالحياةُ المسيحيّة هي حياةُ الصِراع ما بين الرُّوحِ والجَسد . أَعمالُ الجسَد هي أَعمالٌ شرّيرة بينما أَعمالُ الرُّوحُ القُدُس تعطي فينا الثِمار الصالحة أَي الأَعمال الصالحة. فإذن، الشريعتان تتصارعان فينا: شريعةُ الخطيئة وشريعةُ البِرّ والقداسة. والإِنسانُ هو الحلَبَة، حلَبَةُ الصِراع. يجري الصِراع في ضميرِ الإِنسان بين ميولِه الإِلهيّة، بينَ الصورة الإِلهيّة المغروسة في المعموديّة وبين آدم الساقط.

الحربُ مستمرّة ولا هوادة فيها. القدّيس أَنطونيوس الكبير قال: إنّ التجربة باقيَة حتى آخر لحظة من العمر. الذهبي الفم قال: في لحظةِ الوفاة، بيسوعَ المسيح يُكمِّل الّذينَ يَؤُدُّونَ الذهابَ إليه . أَي أَنّنا دائماً ساقطون . لا كمالَ على الأَرض ويسوع هو الذي يُكمِّل المجاهدين الّذينَ عاشوا.

الإِنسان المسيحي مصارعٌ، يصارعُ ما فيه من أَهواءٍ وشهَوات ومُيول ورَغَبات وكلّ ما هو أَرضيّ. الذهن، أي النوس في اليوناني ممكن أَن يتلَوَّث بأَعمالِ الجسد، وأَعمالُ الجسد تجُرُّ النوس وراءَها. ولذلك لا بُدَّ من تطهير النوس . باسيليوس الكبير يقول: " إنّ النوسَ هو عينُ النفس" . وغريغوريوس اللّاهوتي يقول: "بالنُّوس نحنُ نتَّحدُ باللهِ". تطهيرُ النوس وتطهيرُ الإِنسان من العيوبِ والرذائل ومن الإِنسانِ العتيق يتطلّبُ الجِهاد. في صلاةِ الساعة التاسعة لباسيليوس الكبير: "نخلَعُ الإِنسانَ العتيق لنلبَس الإِنسانَ الجديد". الإِنسان في كولوسي يلبَس الإِنسان الجديد الذي يتجدَّد للمعرفة ليُصبِح على صورةِ خالِقِهِ.

في رسالةِ بولس الى أَهلِ أَفسُس الفصل 4 الآية 13 :" إِلى أَن ننتهي جميعُنا الى وِحدَة الإِيمان ومعرفة ابْنِ الله الى إِنسانٍ كاملٍ الى مِقدارِ قامةِ ملءِ المسيح". معرفة إِبْن الله في المسيحيّة لا تأتي بالتحليل العقلي الأَفلاطوني الأَرسطَوي، معرفة الله تأتي بالإِتّحاد. ولذلك يختلف الموضوع الإِلهي عن الموضوع العقلي الفلسفي.

باسكال عندَهُ عبارة مهمَّة: إِلهُ المسيحيّين هو إِلهُ الفلاسفة. إِلهُ المسيحيّين هو الإِله الإِتّحادي الّذي نتَّحدُ بِهِ. نعرف يسوع المسيح عن طريقِ الإِتّحادِ بِهِ. الإِتّحادُ به يعني أَنّ يسوعَ المسيح له المجد يَملءُ كيانَنا.

يوحنا السُلّمي بالفقَرة 36 من الدرجة الثلاثين يستعمل عبارة متأَثِّرة بنشيدِ الأَناشيد: "لقد جَرَحْتَني يا حب" . محبّة الله تجرَحُ في الصّميم لأَنّها سِهامٌ ناريَّة تخترقُ القلب. في سِفرِ نشيدِ الأَناشيد: "المحبّةُ أَقوى من الموت"، والمحبّةُ في المسيحيّة ليست عاطفة عابرة.

المحبّةُ المسيحيّة تختلف عن المحبّة في العهد القديم . "أَحِبْ قريبَك كَنَفسِك" هذه عبارةٌ وَلّى عليها الزمان ، هي عبارةُ التثنيَة . المحبّةُ في المسيحيّة هي الصليب، هي بيسوع المسيح الذي بذَلَ نفسَهُ من أَجلِنا . بولس في الفصل 5 من أفسس الآية 25: "بذَلَ نفسُهُ من أجلِنا ". علّمَنا الرب يسوع أَن نبذُلَ أَنفُسَنا من أَجلِ الآخرين.

إِذن، المحبّةُ في المسيحيّة تختلف عن المحبّة في التثنيَة. أَحبِبْ قريبكَ كنفسكَ لا تخلو من الأَنانيّة. أَن تُحِبِّ نفسَكَ، وتحِبِّ الآخرين كما تحبُّ نفسكَ هي في دائرة الأَنانيّة . ومَن يستطيع أَن يُحِبِّ الآخرين كما يُحِبُّ نفسهُ إِلّا بفِعلِ الرُّوح القُدُس؟ المحبّةُ في العهد الجديد هي غيرُ المحبّة في العهد القديم. هي البَذْل! هكذا أَحبَّ اللهُ العالم حتى بذَلَ نفسَهُ من أَجلِ العالم . أَحبَّ اللهُ العالم حتى بذَلَ ابنهُ الوحيد. في إِنجيلِ يوحنا الإِصحاح 15، الآية 12- 13 : " هذه هي وصِيَّتي : أَن يُحِبَّ بعضُكُم بعضاً كما أَحبَبتُكُم. ليسَ لأَحَدٍ حُبٌّ أَعظمُ من أَن يبذُلَ نفسَهُ عن أَحِبّائهِ". لا حبٌّ أَعظم من هذا، أَن يبذُلَ نفسَهُ من أَجلِ الآخرين.

المحبّةُ في المسيحيّة تأخذُ هذا البُعد الإلهي . أي المحبّة هي البَذلُ، هي التضحية، هي الصليب. لما قال يوحنا السُلّمي: " لقد جرَحْتَني يا حبُّ ". الجُرحُ هو جُرحُ الصليب، هو جُرحُ جَنبِ المسيح. وبحَسَب تفاسير الآباء، الماء والدم اللّذان خرجا من جَنْبِ المسيح يرمُزان الى خروج الكنيسة كما خَرَجَتْ حوّاء من جَنْبِ آدم . الكنيسةُ تقومُ على السرّين العظيمَين وهما المعموديّة والقربان المقدّس. فلذلك في إيماننا المسيحيّ الصليب هو الأَساس، والأَخلاقُ المسيحيّة هي مربوطةٌ بالصليب. بولس قال: "مع المسيح صُلِبتُ لا لأَحيا أَنا بل المسيح يحيا فيَّ "، و "حاشى لي أَن أَفتخر إِلّا بصليبِ ربِّنا يسوعَ المسيح الّذي بهِ صُلِبَ العالم وأَنا صُلِبتُ للعالم ". يسوع نفسُه قال في لوقا: "مَن أَرادَ أَن يتبعَني فليَحمِلْ صليبَهُ كلّ يومٍ ويتبعَني"، القداسةُ هي الصليبُ بالنهاية

الإِنسانُ المسيحي مصلوبٌ عن هذا العالم، مصلوبٌ عن كلِّ الشَهوات والرغَبات وكلُّ ما هو دُنيويٌّ، مصلوبٌ عن الجسد

في غلاطية 5 الآية 24 : " والّذينَ هُمْ للمسيح، صَلَبوا أَجسادَهم بكُل ما فيها من أَهواءٍ وشَهَوات"، والصليبُ ليسَ فقط هذا الإِمتناع عن العالم بل هو أَقوى من ذلِكَ لأَنّ يسوع بَذَلَ ذاتَهُ من أَجلِنا، أَحبَّنا حتى ماتَ من أَجلِنا ونحنُ نُحِبُّهُ فنموتُ من أَجلِهِ . الكمالُ الحقيقيُّ هوَ في موتِ الشُهداء. الشُهداء هُمْ الّذينَ يُمثّلونَ المحبّة المسيحيَّة الحقيقيَّة التامّة. ماتوا من أَجلِ المسيح، ضَحُّوا بحياتِهم من أَجلِ المسيح، أَعطَوا حياتَهُم من أَجلِ المسيح فكانوا أَكمَلَ المسيحيِّين.

القداسةُ إِذن هي قداسةُ الصليب وما كلُّ الناس مدعُوُّونَ الى موتِ الشهادة . ولكن حياةُ الإِنسان المسيحيّ هي اسْتشهادٌ. هناكَ كثيرون إِعتبَروا النُسَّاكَ شُهداءً. الشهيدُ يموتُ دفعةً واحدةً، أَمّا النُسَّاك فيموتون كلّ يومٍ وأَعني أَنّهم هُمْ شُهَداءٌ في الكنيسة إِذ أَنّ حياتَهُم كلُّها إِستِشهادٌ.

لماذا الربُّ يسوعَ المسيح اختارَ هذا الطريق؟ هذا طريقُهُ! هو علّمَنا " التلميذُ ليس أَفضل من معلّمِه، والعبدُ ليس أَفضلُ من سيِّدِه ". عَلّمَنا إِذن، إِذا أَنا المعلّم فَعَلوا فيَّ هكذا، فما الذي يُمْكِن أَن يَفعلوه فيكم فلا تستغربوا أَيّ شيء يصيرُ لَكُم . رأَينا بطرس الرسول يُصلَبْ معكوساً، رأَينا يعقوب الرسول يُقتَل بالسيف، ورأَينا بولس يُقتَل بحَدِّ السيف ايضاً وسواهم من التلاميذ. الكنيسةُ إِذن هي كنيسةُ الشهداء والمسيحيَّة هي ديانةُ الأَبطال ولكِن البطولة هي بطولةٌ روحيّة.

البطولَة الروحيّة هي الصليب، والمطلوب أَن نموتَ عن هذا العالم. بولس الرسول واضح: العالم مصلوبٌ لي وأَنا مصلوبٌ للعالم، أَي كلُّ ما هو عالميّ هو عالمُ الخطيئة. هذا كلُّهُ مرفوض، عالَمُ الخطيئة برُمَّتِهِ مرفوضاً وكلُّ شؤونِ هذه الدنيا مرفوضة. هذا الخروج من العالم هو الّذي يميِّزُ الإِنسان المسيحي الحقيقي. ولذلك فالمسيحيّة ليست نوماً على الطَيلَسام بل هي نومٌ على الشّوك . نرى في ذلك صعوبات! كيفَ ننامُ على الشّوك ، كيف ننام على المسامير ؟ إِن أَرَدْتَ الخَلاص فهذا هو الطريق، إِن أَرَدْتَ الحياة فهذا هو طريقُ الحياة. المسيحُ عسيرٌ إِذ ن. نعم المسيحُ عسيرٌ ولكنّهُ أَحلى من العَسل لأَنّه بالرُّوحِ القُدُس لهُ المجد يتبارك كلُّ أَنواعِ الضعفِ فينا . الشُهداء ما شَعَروا بالآلام، الرُّوح القُدُس له المجد أَعطاهُم قوّةً خاصَّةً حتى يُواجِهوا كلَّ أَنواعِ الآلام . قد يقولُ القائل نحنُ لسنا في ظروفِ اسْتِشهاد حتى الرُّوح القُدُس يُكمِّلُنا ويعطينا هذه القوَّة . الرُّوح القُدُس يعمَلُ في كلِّ إِنسانٍ مؤمنٍ لا في الشُهداءِ فقط، وهو الّذي يضَع القوّة في كلِّ واحدٍ منَّا . كلُّ واحدٍ منَّا في نظَرِ الله مشروعٌ . أَي أَعَدَّ الله لكلِّ واحدٍ منَّا مشروعٌ . هذا يَخلُصْ بالرسالة، هذا يَخلُصْ بالإِستشهاد، هذا يَخلُصْ بالنسْكِ، وهذا يَخلُصْ بالأَعمال الخيِّرة.

تاريخُ القداسةِ متنوِّعٌ والله لهُ المجد لدَيهِ مشروعٌ لكلِّ واحدٍ منَّا ولَكِن بشَرط أَن نُطَبِّقَ كلمةَ الأَمثال: "يا بُنيَّ أَعطِني قلبَك"، أَعطِني قلبَك، صليب. كيف أَستطيع أَن أَنزعَ ذاتي من حالي وأُعطي ذاتي لِلّه، وهذا يعني أَن أَصلُبَ ذاتي في النهاية.

ليسَ من السِّهلِ أَن أَتخلَّص من أَنانيَّتي بدونِ الرُّوح القُدُس، ولذلك فالحياةُ المسيحيَّة هي حياةٌ في الله . ننمو في المسيح ، نعيشُ في المسيح، نَصِلُ الى ملءِ قامةِ المسيح. الحياةُ الروحيَّة أَو حياةُ القداسة هي حياةٌ في المسيح. لِكَي أَحيا في المسيح عليَّ أَن أَطرَح الإِنسانَ العتيق وأَلبسَ الجديد، والجديد هو يسوع المسيح له المجد.

القداسةُ في النهاية هي ارتداءُ يسوعَ المسيح. أَنتُم الّذينَ قد اعْتَمَدتُم قد لَبِسْتُمْ المسيح. في المعموديَّة أَخَذْنا يسوعَ المسيح له المجد. هذا يعني أنّ المسيح موجودٌ فينا بحالةِ قوَّة ويبقى علينا نحنُ أَن ننموَ في يسوعَ المسيح. لِكَي ننموَ في يسوعَ المسيح يجب أَن نلتَصِقَ بيسوعَ المسيح. كيف أَستطيعُ أَن أَلتَصِقَ بيسوعَ المسيح وأَنا مُتَمسِّكٌ بالسُكْرِ والعَربَدَةِ وا لأَهواءِ والنَّهبِ والتجارةِ والتلوُّثِ والقِمار ؟ هذا مستحيل.

ولذلك الإِلتصاقُ بيسوعَ المسيح يَتطَلَّبُ الخروجَ من هذا العالم وشؤونِ هذا العالم . كما قال يوحنا في رسالته: "لا تُحِبُّوا العالَم ولا الأَشياءَ التي في العالم . وماذا في العالم؟ شَهوةُ العَين ، وشَهوةُ المعيشة ، والإِرتباط بكلِّ الشَهوات الدُنيويَّة الفارغة . نحنُ بواسطة هذا الجسد مرتبطونَ بالأَرض ونبدأ الحياة كأطفالٍ وأَرضيّين. ما الفَرق بين الطفل والحيوان؟ الحيوان ذو حواس أَفضل من حواسِّ الإِنسان. الحيوان يخرُج من بَطنِ أُمِّهِ ويتدبَّر شؤونَه وبسرعة. هل يستطيع الطفل بسرعةٍ أَن يرضع؟ الطفلُ البشَري ينمو شيئاً فشيئاً بالتربية، فهو شِبهُ إِنسانٍ. الحيوانُ يَلِدُ مكتمِلاً أَكثرَ من ا لإِنسان.الإِنسانُ فهوَ في حالةِ صيرورةٍ دائمة وتحسُّنٍ متواصلٍ. الحالةُ الثابتة في عالمِ الإِنسان هي غيرُ موجودة. يقَعُ كثيراً ويقومُ كثيراً وعليهِ أَن لا يَيأَس لأَنّ يسوعَ موجودٌ . نجِدُ في المزامير عبارات كثيرة عن قُرْبِ الله مِنّا : الربُّ أَمامي في كلِّ حينٍ، الربُّ عن يمنيني فلا أَتَزَعزَع.

يوحنا فم الذهب ذهَبَ أَبعدَ من ذلك وقال إِنّ يسوعَ أَقرَبُ إِلينا من قُرْبِ الرأسِ الى الجسد . ويضيف نيكولاوس كاباسيلاس في القرن الرابع عشر كلاماً مشابهاً أَقوى فقال: إِتّحادُنا بيسوعَ المسيح هو أَقوى من اتِّحادِ نفسِنا بجسَدِنا . هذا الإِرتباط الشخصي هو حقيقةُ الوجود في يسوعَ المسيح. وكما قال بولس في أثينا: بهِ نَحيا ونتحرَّك ونوجَد.

نستعملُ في العربيَّة لفظة " الحيِّز " أَي المكان. إِن أَرَدْنا أَن نُطبِّق ذلك على يسوعَ المسيح فيسوعُ المسيح هو حَيِّزُنا، بل هو أَقوى من ذلكَ ليس فقط حيِّزنا، نحن موجودونَ في هذا الحيِّز وهو موجودٌ فينا برُمَّتِهِ. يستعمل يوحنا في إِنجيلِهِ أَلفاظاً مهمَّة مثل "الإِستقرار". يسوع مستقِرٌّ فينا ونحنُ مُستقرّينَ فيهِ. عبارةٌ تتكرَّر كثيرًا. وهذا الإِستقرار ليَسوع فينا هو مَوردُ حياتنا الروحيَّة برُمَّتها.

كيرِلُّس الأُورشليمي وكثيرون يتكلّمون عن ارتباطِنا بيسوعَ المسيح الّذي هو حقيقة. نستطيع أَن ننموَ مع يسوع بالإِيمان وبالأَعمال الصالحة وبالمحبَّة. والإِيمان المسيحي في إِنجيلِ يوحنا وفي كلِّ العهد الجديد ليس ايمان التّصديق ، هو إِيمانٌ أَقوى من ذلك . الإِيمان المسيحي ليسَ عمليَّةً عقليَّة وليس تصديقاً، بل هو حياة. يسوع يَسكُنُ فينا بالإِيمان فنصيرُ نحنُ مسكِنًا لهُ .

في العهدِ الجديد، آياتٍ عديدة وخاصةً في رسالة بولس الى أَهلِ كورنثوس الفصل 2 الآية 16: " وأَيُّ وِفاقٍ لِهيكلِ الله مع الأَوثان؟ فإِنَّكم هيكلُ الله الحيّ، كما قالَ الله:"إِنّي سأَسكُنُ فيهم وأَسيرُ فيما بينَهُم وأَكونُ لهُم إِلهاً وهُمْ يكونونَ لي شعباً ". هناكَ شيءٌ رائعٌ

جدًا، وذلك عن علاقَتِنا الكيانية بيسوع المسيح. نحن لسنا الى جانبِهِ، لسنا بين يدَيهِ، نحنُ فيه . هذا هو تعليمُ الكتاب المقدَّس والآباء القدِّيسين. نحنُ في يسوع ويسوعُ فينا.

في الرسالة الى أَهلِ رومية الفصل 8 الآية 15-16: " إذ لم تتلَقَّوا روحَ العُبوديَّة ايضاً للمخافة بل روحَ التبنّي الّذي بهِ نصرُخ : أَبّا أَيُّها الآب". وفي غلاطية الفصل 4 الآية 6 :" وبما أَنَّكُم أَبناؤُهُ، أَرسَلَ اللهُ روحَ ابْنِهِ الى قلوبِكُم صارخاً: أَبّا أَيُّها الآب".

عباراتٌ فوق الطبيعة. الرُّوح القُدُس الساكنُ فينا هو الّذي يصرُخ للآب "يا أَبَّا الآب"، " أَبَّا " كلمة سريانية نقولها نحن كالأَطفال لأَنَّها كلمة تحبيبيَّة، فنحنُ نَتحبَّب إلى الآب ونلفظ في السريانيَّة "يا أَبَّا الآب"، أَي لنا" مَوْنَة " عليهِ، نتدَلَّلُ عليه.

في الرسالة الى أَهلِ رومية الفصل 8 الآية 26 عبارةٌ قويّةٌ جدًا " وكذلكَ الرُّوحُ ايضاً يعضُدُ ضُعفَنا لأَنَّا لا نعلَم كيف نُصَلِّي كما ينبغي، ولَكِنَّ الرُّوحَ نفسَهُ يشفعُ فينا بأَنّاتٍ لا يُنطَقُ بها ". نحنُ لا نعرفُ ماذا نُصلّي، الروحُ القُدُس الساكنُ فينا هو الّذي يُصلّي فينا بأَنّاةٍ كثيرةٍ. وفي رومية الفصل 5 الآية 5 :" والرجاءُ لا يُخيّبُ صاحبَهُ لأَنّ محبة الله قد أُفيضَت في قُلوبِنا بالرُّوحِ القُدُس الّذي أُعطِيَ لنا ".

كلُّ هذه العبارات تدُلُّ على أنّ العلاقة بينَنا وبين يسوعَ المسيح هي علاقةٌ عُضويَّة. ليست علاقة أَدبيَّة ولا سطحيَّة، هي علاقةُ الأَعضاءُ بعضُها ببعضٍ. هذه العبارات هي فوق مستوى البشر وتظهر غريبةً ولكن هذه هي الحقيقة. ما غيرُ مستطاعٍ عند الناس هو مستطاعٌ عندَ الله. كيفَ لهُ المجد، يضَعُنا في قلبِهِ وفي صدرِهِ ؟ هذا عمَلُهُ هوَ.

نحنُ موجودونَ في يسوع المسيح ويسوع موجودٌ فينا . ذهبي الفم قال: "الكنيسةُ هي المسيح . وذَكرَ كلامُ الربِّ يسوع لبولس قُربَ دمشق: "بولس بولس لماذا تضطهدني؟ قال له: من أَنت يا رب . أجابَ: أنا يسوع. بولس لم يضطهِد يسوع بل كان يضطهِد الكنيسة. إذن، الكنيسةُ هي يسوع. ومَن هي الكنيسة؟ هي المؤمنون. نحنُ الكنيسة، فنحنُ يسوع. هذه الشَركِة بيننا وبين يسوع كما نقول باللُّغة العاميَّة "هذه الخَلطَة" بيننا وبينَ يسوع هي كلُّ ما في المسيح.

آخُذُ أعضاء المسيح وأجعَلُها أَعضاءَ زانية؟ هذا كلامُ بولس. ماذا نُريد من عباراتٍ أَقوى من تِلكَ العبارات! نحنُ ويسوع واحد.

في الرسالة الأُولى الى أَهلِ كورنثوس الفصل الأوّل الآية 28 الصعبة والعسيرة : " ومتى أُخضِعَ لهُ كلُّ شيءٍ فحينئذٍ يخضَعُ الإبنُ نفسُهُ لِلّذي أَخضَعَ لهُ كلّ شيءٍ ليَكونَ اللهُ كُلاًّ في الكُلِّ ". غريغوريوس اللّاهوتي شَرَحَها: في النهاية يسوع يخضع للآب وكلُّ شيءٍ يخضع للآب.

التوَلُّد ليسوعَ المسيح سينتهي في يسوعَ المسيح ويُصبِح الآب هو الكلُّ في الكلِّ في حياتِنا وفي يسوعَ المسيح المولودِ فينا.

القداسةُ إذن هي ليست حالة ثابتة . الحياةُ على ا لأَرضِ هي جهادٌ متواصلٌ . لا اسْتقرارَ على ا لأَرضِ، بل حرَكَة دائمة . وهذا يمثِّل المسيحيَّة لَأنّ المسيحيَّة ليست دائريَّة مُغلَقَة . المسيحيَّة هي خطٌّ عَيشٍ الى ا لأَمام لبُلوغِ الملكوت الأَبديّ وفي الملكوتِ الأبديِّ لا إستقرار. غريغوريوس النصيصي استعملَ عبارة بولس الرسول: المحبةُ لا تسقط أَبداً فهي مستمرّة . مكسيموس المعترف كمَّلَ البَحثَ وقال صحيحٌ أنّ حياتَنا هي استمرارٌ بيسوعَ المسيح ولَكِن لنا راحة في يسوعَ المسيح. محبَّتُنا ليسوعَ المسيح لا تتوقّف أَبداً وتستمرُّ إلى

أبد الآبدين. شوقُنا إلى الله يَستمِرٌ في حرارةٍ متواصِلَة إلى أبد الآبدين حتى نَسمَعْ الله ولكنّا لن نَسمَعَهُ. ولذلك سنبقى في حالةِ الإستمرارِ في المحبّة المتواصلة التي لا تَبرُد ولا تَفتُر.

في نشيدِ الأناشيد وفي أماكنٍ أُخرى تظهَرُ المحبَّة كَحرارةٍ، كَنارٍ، كَحريقٍ وهذه هي الحقيقة . لا فتور في المسيحيَّة. المسيحيَّة هي ضدّ الفتور، ضدّ الكَسَلْ ، ضدَّ التهاوُن ، ضدَّ التخاذُل ، ضدَّ الهَرَب ، ضدَّ الفَرار . المسيحي شهيدٌ حيٌّ باسْتمرارٍ . يدُهُ على المحراث ولا يلتَفِت إلى الوراء، هوَ دائماً يسيرُ إلى الأمام. خطُّ المسيحي هو السَيرُ المتواصِل ومتى توقّفَ فَشَلَ. متى خَطى خُطوات إلى الوراء عَرَّضَ نفسَهُ للخطر. من أين يأتي بالبترين على الدوام؟ الرّوحُ القُدُس الساكنُ فيهِ هو المسؤول، ولكن بشَرط أن يكونَ حَكيماً.

بولس الرسول في أفسُس نصَحَنا أن نتصرَّفَ بحَذَرٍ كالحُكَماء لا كالجُهَلاء. والربُّ يسوع نفسُه ركّزَ كثيراً على اليَقظة والسَهَر والإنتباه والحَذَر واستعمَلَ لفظة "إحذَروا" ، ولفظة "الإستيقاظ" في مثَل العذارى العاقلات والجاهلات، إسهَروا وصلّوا لئلّا تدخُلوا في تجرِبة، وفي مواضيعٍ أُخرى. هذه العبارات كثيرة في الأناجيلِ والرسائل. بولس إستعملَ كلمة "اليَقظة" في الترجمة العربية، وفي الترجمة اليسوعيّة الحاليّة ترجمتُها تارّةً "اليَقْظَة" وتارّةً "الصحو". في اليونانيَّة عبارة "اليقظة" مُستعمَلة رهبانيّاً أكثر من "الصَحو".

اليقظة عند الآباء القدّيسين موضوعٌ مهمٌّ جداً. على المسيحي أن يَحرُسَ قلبَهُ ضدّ الأهواء والخواطر الشرّيرة وا لأعمال الباطلة وأن يكونَ دائماً في حالةِ صحوٍ مُتواصل وإلّا غَدَرَ به الشيطان والأهواء. الشيطان عدوٌّ لا ينام، أمّا نحنُ فنَنام. ولذلك فحربُنا كما صوَّرَها بولس في الرسالة الى أهلِ أفسس الفصل 6 الآية 11 – 13 هي حربٌ مع الشياطين الغير المنظورين الّذينَ لا ينامون. وطلب منّا بولس أن نلبَسَ كامل الأسلحة الروحيّة :" إلبَسوا سِلاحَ الله الكامل لِتستطيعوا أن تقِفوا ضِدّ مكايدِ إبليس. فإنّ مصارَعَتنا ليست ضدّ دمٍ ولحمٍ، بل ضدّ الرئاسات، ضدّ السّلاطين، ضدّ وُلاة العالم، عالم ظُلمةِ هذا الدّهر، ضدّ أجنادِ الشرّ الروحيّة في السماوات. فلذلك احْملوا سِلاحَ الله الكامل لتستطيعوا المقاومة في اليوم الشرّير حتى إذا تَمّمتُم كلّ شيءٍ تثبُتون".

في الرسالة الى أهلِ رومية الفصل 6 الآية 12 – 13 : " فلا تسودَنّ الخطيئة جسدُكُم الفاني فتنقادوا لِشَهَواتِه، ولا تجعَلوا من أعضائكم أسلِحَةَ إثمٍ للخطيئة بل اجْعلوا أنفُسَكُم لِلّه كأحياءَ قاموا من بين الأموات واجْعَلوا من أعضائكم أسلِحةَ برٍّ لِلّه".

لا تستعملوا أعضاءكُم للإثم. هذا يعني إني أنا شخصيًّا الّذي يستعملُ أعضائي: إمّا سلاحٌ للشرّ وإمّا سلاحٌ للبرّ. العبارات العسكريّة (سلاح– سيف– سهام– خوذة) في رسائل بولس مهمّةٌ جداً. الآباء القدّيسون قالوا: الخطيئة هي إساءةُ الإستعمال . قد يَسيءُ الإنسان إستعمالَ أعضائهِ. إستعمالٌ خاطئٌ ويرتكب الإنسانُ الخطيئة.

إرادةُ الإنسان تلعبُ دوراً مهمّاً جدّاً . خلاصُنا بيَدِنا. نحنُ الّذينَ نَختارُ الشرّ، نحنُ الّذينَ نَختارُ الله ونحنُ الّذينَ نرفُضُ الله. الإرادةُ الشخصيّة، الجِهاد الشخصي، المكافحة والمصارعة، والبطولة الشخصيّة تلعبُ دوراً كبيراً جداً في مصيرِ الإنسان. نختارُ الله فلْنصبَحْنا الله. مَن أدارَ وَجهَهُ عن الله، تعاملَ مع إبليس. المسيحي بطلٌ مصارعٌ وتلميذٌ مصارعٌ أكثر من الجيوش ، فصِراعُنا هو مع القِوى الشرّيرة. الشيطان يحرّكُ الناس نحو الشرّ ويخرِّبُ العالم فهو عدوٌّ لا ينام ووظيفتُهُ الوحيدة أن يُورّطَنا في الآثام.

ننتصرُ على عَدُوّنا الكبير ولكن في النتيجة يسوع المسيح هو المنتصر. نُجاهد، ولكن المنتصر الحقيقي هو يسوع المسيح. كيف أعيشُ الحياة المسيحيّة؟ أضَعُ يدي في يدِ يسوع المسيح و أُجاهد، ويسوع المسيح هو المساعد. النِعمةُ الإلهيّة هي التي تُساعدُني في جهادي

الروحي. إذا قُلتُ: أنا بقوّتي الذاتيّة صَنَعتُ كذا وكذا أكونُ متكبّراً متعجرفًا ممتلئًا من روحِ إبليس. نحنُ نمتلئ من الرُّوحِ القُدُس وهذا الإمتلاء يكونُ بالصلاة والجهادِ الروحي، في النهاية نحنُ مع الله.

باسيليوس واثناسيوس الكبير قالا ما خُلاصَتُهُ: الرُّوحُ القُدُس له المجد يَختُمُنا. إذن، يظهرُ فينا يسوعَ المسيح ويسوعَ المسيح هو صورةُ الآب. إذ نرى فينا صورة يسوع المسيح نرى الآب الّذي هو أَصلُ كلّ شيء. نحن ومع الثالوث القدّوس لنا هذه الشَركة الكبيرة. في رسالة يوحنا شركَتُنا هي مع الآب وابْنِهِ . وفي آخر رسالة كورنتوس الثانية "نعمةُ ربِّنا يسوع المسيح ومحبةُ الله وشَركَة الروح القُدُس". نحنُ نلنا شَركَة مع الآب والإبن والرُّوح القُدُس، فنحنُ إذن في الآبِ والإبنِ والرُّوح القُدُس له المجد والإكرام والسجود الى أَبد الآبدين ودهر الداهرين، آمين.

كيف يتغيّر الإنسان بالتوبة؟

التوبةُ في الإنجيل باليونانيّة هي "ميتانيا" وتعني أَنّ الإنسان إنقلبَ واهْتَدى وغَيَّرَ وتَبَدَّلَ. التغيُّر والتبديل في الإنسان يحتاجُ الى عَصْرِ الذات. على المرء أَن يعصُرَ ذاتَهُ . لا يكفي أَن يَقِفَ أَمامَ الكاهن ويتلو سلسلة من الخطايا، هذا ليسَ بتوبةٍ. التوبَةُ هي انْسِحاقُ القلب، هي غَسْلُ القلب.

في خطاب بطرس يوم العنصرة المجيدة، القلبُ المنسَحِق المتوجِّع المتأ لِّم هو المقبولُ عند الله . ولذلك ليست التوبة تلاوة سلسلة من الخطايا والقلبُ بارد . التوبةُ حرارةٌ في النفس، إنسحاقٌ كبيرٌ، شعورٌ كبير بالذَنب، أَلَم داخليٌّ في صميمِ الإنسان على ماضيهِ في الخطيئة وفي الأَعمال الشرّيرة.

التوبةُ هي معصَرةٌ تعصُرُ الإنسانَ كيانياً بِرُمَّتِهِ. الإنسان بكُلِّ كَيانِهِ روحاً وجسداً ينعصرُ في التوبة ، في الندامة والحسرة . المهمُّ هو انسحاقُ القلب والضميرُ الحيّ. القدّيس اندراوس الدِمشقي أُسقف كريت يقولُ في ضميرِه: إِنَّهُ أَقسى من أَيِّ سلاحٍ في العالم . هذه العبارات قويَّة جداً.

في الفصل الرابع من رسالة بولس الى العبرانيّين الآية 12 – 13 كلمة الله كلمة الإنجيل أَقوى من كلِّ سلاحٍ ذي حدَّين: " فإِنّ كلامَ الله حيٌّ فعّالٌ أَمضى من كلِّ سيفٍ ذي حدَّين نافِذٌ حتى مَفْرِقِ النفس والرُّوحِ والأَوصال والمِخاخ ومميِّزٌ لأَفكارِ القلب ونيّاتِهِ، وما من خليقةٍ غيرُ ظاهِرةٍ أَمامَهُ بل كلُّ شيءٍ عارٍ مكشوفُ الباطِنِ لِعَينِهِ ولهُ نؤدّي الحسابَ ".

في رسالة بولس الى أَهلِ أَفسُس الفصل 6 الآية 16- 17 : " واحْمِلوا علاوة على ذلك تُرْسَ الإيمان الّذي بهِ تقدِرونَ أَن تُطفئوا جميعَ سِهام الشرير الملتهبة واتّخِذوا خوذَةَ الخلاص وسيفَ الرُّوحِ الّذي هوَ كلمة الله" . التركيز على كلمة الله كسَيفٍ.

كلمة الله سيفٌ قَطّاع أَقوى من أَيِّ سيفٍ ذي حدَّين وهذا يعني أَنّ النفسَ البشريّة لا تكونُ جماداً، لا تكونُ حجراً. بولس الرسول في أَفسس يطعَنُ في خسارة القلب. خسارةُ القلب مرضٌ روحيٌّ خطيرٌ جداً. لا بُدَّ للقلبِ من أَن يلينَ ويتركَ قساوتَهُ فيصيرَ قابلِاً لاسْتقبالِ الله. يوحنا السُلّمي والرهبانيُّون يرُكِّزون على الطاعة والمطواعيَّة. على الراهب أَن يكونَ مُطيعاً وأَن يكونَ مِطواعاً في يدِ مُرشِدِهِ الروحي. هذا يتطلّبُ تغيير كيان الإنسان بِرُمَّتِهِ، والإنسانُ عنيدٌ متَكَبِّرٌ متعجرِفٌ مُقاوِمٌ لا يخضع بسهولة، لا يُطيع بسهولة، يُعارض. كيفَ عليهِ أَن يتركَ المعارضة والمقاومة، كيفَ يُصبح مِطواعاً لله ومُطيعاً لله ؟

بولس الرسول تَكلَّمَ عن الإمتلاء من المشيئة الإلهيّة. كيف نستطيع أَن نمتلئ من مشيئةِ الله وقلوبنا حَجر. كلُّ هذا يتطلّب تدريبً روحيًّ عميقًا جداً حتى يصير الإنسان مِطواعاً لَيِّناً. القلبُ الخاشعُ والمتواضعُ لا يرذُلُهُ الله، ولَكِن من أَينَ نأتي بهذا القلب؟

هذا يحتاجُ الى تمارينَ روحيّة لِكَي يصيرَ الإنسان لَيِّناً. الراهب الحقيقي يكونُ قِطعةَ عجينٍ لَيّنة في يدِ مُرشِدِهِ الرُّوحي لِيَصنعَ مِنهُ إنساناً روحيّاً. أَمّا إذا كان القلبُ قاسياً ومعانداً وغيرُ مِطواعٍ خالٍ من المطواعية، فَأبوه الرُّوحي لا يستطيع أَن يصنعَ فيهِ شيئاً. التأثير من الأَب الروحي على الراهب الواقع تحت ا لإرشاد يتطَلّب من الراهب المرونة والُّليونة والطاعة. الطاعةُ بحَدِّ ذاتِها لا تكفي . المهمُّ أَن تكونَ النفس ذكيّة، فيها نوع من البِرّ، من القداسَة، من الإستسلام للمشيئة الإلهيّة لِكَي تمتلئ من المشيئة الإلهيّة. إن كانَ القلبُ قاسياً فهوَ لا يمتلئ من المشيئة الإلهيّة.

الإنسانُ بطبيعةِ الحال كإنسانٍ خاطئٍ هو عنيدٌ مقاومٌ. الإنسانُ الرافض عليهِ أَن يترُكَ الرَفض، الإنسانُ المتكبِّر عليهِ أَن يترُكَ الكِبرياء. قد يعترف الإنسان، ولكِن لِيَفتَخِرَ أَنَّهُ اعْتَرفَ. الكِبرياء سرطانٌ خبيثٌ جداً، يهرُب من الباب ليدخُلَ من الشباك. يواكِبُنا منذُ الصِغَر حتى الكِبَر، يتدخّل في كلِّ شؤونِنا لِكَي نفتخر ونتباهى ونتعاظم وننتفخ. كيف نحاربُ الكبرياء؟ الأَمرُ يحتاج الى تواضعٍ، الى دموعٍ، الى انسحاقٍ، الى سجودٍ، الى ركوعٍ، الى صلوات، الى ابتهالاتٍ روحيّة، الى مطالعاتٍ روحيَّة، إلى اقْتِداء بِربِّنا يسوعَ المسيح ، الى سجودٍ أَمامَ صليبِ ربِّنا يسوعَ المسيح.

وهذا كلُّهُ لا يتوفَّر لنا بيَومٍ ويومَين وثلاثة أَيّام. يحتاجُ الى الزمن لِكَي يصيرَ الإنسان رقيقاً. يحتاجُ الى ركوعٍ وسجودٍ وندامةٍ وتوباتٍ وتخشّعاتٍ لا نهاية لها. والشيطانُ لا يُهمِلنا. إن حاوَلنا أَن نصيرَ مُطواعين لَيِّنين تائبين خاشعين فالشيطان يلاحِقُنا بالكبرياء والعجرَفة ويستفيدُ من دموعِنا ومن ركوعِنا وسجودِنا لِكَي ننتفِخ ونتكَبَّر ونتعجرَف ونتوَهَّم بأَنّنا فِعْلاً قد وصَلنا الى التوبة.

التوبةُ هي معركةُ الحياةِ بِرُمَّتِها . منذُ البداية حتى نَلفَظُ الرُّوحَ ونحنُ في حالةِ التوبة . حالةُ التوبة إذن ليست حالةً ثابتة ، هي حالةٌ ديناميكية، هي جهادٌ ديناميكي متواصل ضدَّ الخطايا، ضدَّ قساوةِ القلب ، ضدَّ الكبرياء، ضدَّ العجرفة ، ضدَّ الغضب ، ضدَّ كلِّ الرذائل. ما الّذي يُقَسِّي القلوبَ ضدَّ التوبة ؟ الرذائل. الإنسان المحشو بالرذائل هو ا لإنسان الغير قابل للتوبة. الإنسان القابل للتوبة، هو الإنسان الّذي يفحَص نفسَهُ بقوَّةٍ كبيرة وبِعُمقٍ كبيرٍ فَيَكشِفَ عن عيوبِهِ وجرائمِهِ ورذائلِهِ وخطاياه وقباحاتِهِ ويبكي عليها وينسحق عليها. يُحاربُ الكبرياء ويتخلّص من قساوةِ القلب.

قساوَةُ القلب عدُوٌّ لدودٌ للتوبة. قاسي القلب لا يتوب. عنيدٌ متكبّرٌ متعجرفٌ يابسٌ، لا مُرونَة ولا لُيونة ولا سهولة ولا أَخذ وعطاء بسهولة. يتعجرَف ويتكبَّر ويُناقِض ويُعارِض ويُجادِل . هذه كلُّها عيوبٌ تمنع التوبة الحقيقيَّة . التائبُ الحقيقي هو الّذي عند رؤيَتِهِ الحقيقة يركع ولا يُكابِر بالباطل ولا يُجادِل بالباطل. يرضَخ للحقّ فوراً ويُفتِّش عن الحقيقة ويكونُ عاشِقٌ لِلحقيقة .

فإذن النصر على قساوةِ القلب هي مرحلةٌ مهمّة من أَجلِ اقْتِناءِ التوبة. قساوةُ القلب عمليّة شيطانيّة. الشيطانُ يُقَسِّي قلوبَنا لِكَي لا نَتوب فَيَنْفُخُنا بالكبرياء لئلّا نتواضع، ينفُخُنا بالكِبرياء لئلّا نرَكع. إن أَرَدْنا أَن نَضَعَ جباهنا على الأَرض ينفُخُنا بالكِبرياء: أَنا ركَعْتُ وأَنا صَلّيت وَوَضَعْتُ جبيني على الأَرض وأَنا الآن في حالةِ توبةٍ وانْسِحاق . يتكبَّر الإنسان ويتعجرَف. يضَعْ نفسَهُ مع التائبين وهذا كلُّهُ كذب.

التائب الحقيقي هو إنسانٌ مُنسحِقُ القلب. قلبُهُ ممزَّق، مُنسحِق، مُتواضِع، خالٍ من كلِّ شيءٍ إسمُهُ كبرياء. الكبرياء هي عدُوٌّ للتوبة. قساوةُ القلب هي عدوٌّ للتوبة. التائبُ الحقيقي هو " النائحُ الحقيقي" . في التطويبات كما جاءَ في الترجمة العربيّة "طوبى للحزانى" . اللّفظة اليونانيَّة هي " طوبى للنائحين" وحرفيّاً، "طوبى للحادِّين" . اللّفظة اليونانية Pentos تعني حِداد على الموت والإنسانُ التائب هو إنسانٌ يحِدُّ على نفسِهِ الواقعة في الخطايا والمهدَّدَة بالموتِ الروحي.

التوبة لا تأتي عَفواً فلا بُدَّ من أَبٍ روحيٍّ يقودُ الإنسان لأَنّ مناهجُ التوبة تحتاجُ الى تدريب. إذا كان الإنسانَ يُصلّي ويركع، فهَل هذا الأَمرُ يكفي؟ كلا. قد يُصَلّي قانون يسوع كلّ يومٍ ويبقى متكبّراً. قد يُفاخر لِأَنّه يُصلّي قانون يسوع كلّ يومٍ وهو راكع واضع رأسَهُ على الأَرض. هذا كلُّهُ لا يكفي. المسألة تتطلَّب " فَركة " قويَّة كثيراً للقلب. وهل نستطيع أَن نفرُكَ القلب؟ نعم نستطيع أَن نفرُكَ القلب. هذا هو عملُ الإنسان التائب. إذا قَرأنا قانونَ يسوع نرى الكاتب يعترف أَنَّهُ أَكبر إنسانٍ خاطئٍ في التاريخ. هوَ خاطئٌ أَكثرَ من كلِّ الناس الّذينَ خطئوا منذ آدم حتى اليوم. فيه عباراتُ ندامة تجعَلُنا نشعُر بذلِكَ حقيقةً. على التائب الحقيقي أَن يُشعِر نفسَهُ أَنّهُ إبْن جهنَّم.

يوحنا فمالذهب قال: " أَنا أَدنى من كلب" . قدِّيسونَ كثيرونَ قارنوا أَنفُسَهُم بالحيوانات ووَجدوا أَنفُسَهُم دونَ الحيوانات، لأَنّ الحيوانات هي دونَ عقل، دونَ حريَّة و دونَ إرادة حرَّة. والإنسان في نَظَرِ الكثير من الآباء القدّيسين هو أَدنى من كلِّ الحيوانات جميعاً. في قانون يسوع: " أَنا بهيمة ولستُ إنساناً ". نجِدُ في قانونِ يسوع وعند أَفرام عبارات عديدة عن التوبة والندامة والإنسحاق وهذه العبارات هي التي تجعل الإنسان يشعُر بحالةٍ أَدنى من الحيوان.

هل من السَهلِ أَن يشعُرَ الإنسان العادي بأَنّهُ أَدنى من الحيوان؟ الجواب: "كلا"، العمليّة عسيرةٌ جداً . ولذلك كما قُلتُ منذ البداية، الكبرياء هو عدوٌّ الإنسان، عدُوُّ التوبة، عدُوُّ الإنسحاق، عدُوٌّ الرجوع إلى الله. يوحنّا السُلّمي يعتبر التجديف هو من عمَلِ الكبرياء. ما الّذي يدفع الإنسان الى التجديف على الله وعلى الإيمان؟ الشيطان والكبرياء. الشيطان والكبرياء هم عدُوّا التوبة. الكبرياء خطيئةٌ فاحشة جدًا والتوبةُ مستحيلةٌ مع الكبرياء وقساوةُ القلب.